الدلالة السيميولوجية للأيقونة اللونية المتضادة(الأبيض والأسود) في رواية فوضى الحواس

أ.م.د هدى صلاح رشيد
كلية التربية للبنات
جامعة تكريت (العراق)

ملخص البحث

لما كانت العلامة ــبكل أشكالها في ابسط مفاهيمها تمثل الإشارة الدالة على إرادة إيصال معنى،لذا فإنَّ الخصـوصـية التواصـلية في الإبداع الأدبي تتمحور في قدرته على إفراغ العلاقة بين العلامة بالموضــوع من أية قيمة وجودية، والمهم اســتجلاء هذه الحقيقة الســيميائية عند المقاربة ضــمن بعد مفاهيمي نســقي لســبر أغوار منطق التضــايفات التي يمليها الإبداع على شبكة العلامات.

إذن لا يتأتى تصحيح مسار الدراسة الموضوعية للإبداع الفني وحسب رأي جان ماكروفسكي، إلاَّ باستكناه حقيقته السيميائية التي تقوم أساساً على وظيفتي الاستقلالية والتوصيل، فالإبداع مرتهن وجوده بوجود وســيط توصــيلي بين المبدع والجمهور منشــأنه أني مثل جوهر الإبداع ضـمن عالم محسـوس محفز للإدراك تجسـده العلامة في تقابلها مع المعنى الناشـئ عن الوعي الجماعي.

ومن هنا سعينا إلى ا ستجلاء مفاهيم سيميائية العلامة اللونية المتضادة (الأسود،الأبيض) في الكتابة الإبداعية،فكان اختيارنا لرواية (فوضى الحواس) لنكتشف عملاً إبداعياً مليئاً بعوالم الاتصـالات والمشـاعر الباطنية والخارجية، فكانت لغة السـرد المسـتغانمي لغة إبداعية دينامية كشـفت الفوضـى الحواسـية وثنائية اللونين (الأبيض والأسـود) عن تداخل الإحسـاس بالإبداع، فوظفتها توظيفاً انزياحياً خرج بها إلى مدلولات أخرى سـنكتشـفها في ظل دراســة سيميولوجية .

Symological significance of the contrasting color icon (white and black)
In the novel Chaos of the senses
By Ahlam Mostaganemi

Dr. Hoda Salah Rashid
University of Tikrit / Iraq

Summary

Simey research is concerned with the study of communication methods and the tools used to influence the recipient in order to persuade or induce him. Hence, we sought to clarify the concepts of the ambiguity of color contrasting (black and white) in creative writing. Our choice of the novel "Chaos of the senses" was to discover creative work full of communication worlds and inner feelings And external, was the language of the narrative of the Meghangani dynamic creative language revealed chaos and the senses of the two-color (black and white) from the overlap of the sense of creativity, Vtvmthm employment displacement went to other meanings we will discover under the study of Semimology.

In an attempt to create a systematic combination within the semimological framework, we did not commit ourselves to analytical reading at a single level, in order to enrich the scriptural space in order to satisfy the Chakli concept or as AD. Grimas b (Isotopeia), which considers the need to subject the semantic analysis of texts to a unified reading responsible for determining the simple structures of meaning.

In this attempt, we tried to synthesize composite reading by adopting methodological composition in an attempt to combine "structural" and "social" in a single methodological structure. In our approach to the novel "sensory chaos" we adopted the semimological procedure by seeking sufficient capacity and comprehensiveness to grant these The approach of the semantic density required.

توطئة:

يعنى البحث السيميائي بدراسة أساليب التواصل والأدوات المستخدمة للتأثير في المتلقي قصد إقناعه أو حثه، أي أنَّ موضوع السيمياء هو التواصل بكل أشكاله ومظاهره، ومن هنا ينفتح البحث على الوظائف لأطراف الإشارة التواصلية، ويمتد ليتناول أنساق منهجية أخرى.

ولما كانت العلامة بكل أشكالها في ابسط مفاهيمها تمثل ((الإشارة الدالة على إرادة إيصال معنى))[1] لذا فإنَّ الخصوصية التواصلية في الإبداعي الأدبي تتمحور في قدرته على إفراغ العلاقة بين العلامة بالموضوع من أية قيمة وجودية، والمهم استجلاء هذه الحقيقة السيميائية عند المقاربة ضمن بعد مفاهيمي نسقي لسبر أغوار منطق التضايفات التي يمليها الإبداع على شبكة العلامات.

إذن لِ ايتأتى تصحيح مسار الدراسة الموضوعية للإبداع الفني وحسب رأي جان ماكروفسكي،إلاَّ باستكناه حقيقته السيميائية التي تقوم أساساً على وظيفتي الاستقلالية والتوصيل، فالإبداع مرتهن وجوده بوجود وسيط توصيلي بين المبدع والجمهور من شأنه أن يمثل جوهر الإبداع ضمن عالم محسوس محفز للإدراك تجسده العلامة في تقابلها مع المعنى الناشئ عن الوعي الجماعي[2]

ومن هنا سعينا إلى استجلاء مفاهيم سيميائية العلامة اللونية المتضادة (الأسود، الأبيض) في الكتابة الإبداعية، فكان اختيارنا لرواية (فوضى الحواس) لنكتشف عملاً إبداعياً مليئاً بعوالم الاتصالات والمشاعر الباطنية والخارجية، و((لنجرب معاً كيف نتراءى، كيف نكتشف هذا العالم الأكبر المنطوي فينا، الحاضر الغائب في ذات الآن، ذلك الاحتمالي اللامرئي، أو ذلك اللامنظور من الواضح، أو ذاك ... العمق المرفوع))[3] فكانت لغة السرد المستغانمي لغة إبداعية دينامية كشفت الفوضى الحواسية وثنائية اللونين (الأبيض والأسود) عن تداخل الإحساس بالإبداع، فوظفتهما توظيفاً انزياحياً خرج بهما إلى مدلولات أخرى سنكتشفها في ظل دراسة سيميولوجية .

وفي محاولة منا لخلق تركيبة منهجية تتموقع ضمن الإطار السيميولوجي، فإننا لم نلتزم بقراءة تحليلية في مستوى واحد، من اجل إثراء الفضاء النصي بغية إشباع المفهوم التشاكلي أو كما يسميه أ.د. غريماس بـ(الإيزوتوبيا) والذي يرى ضرورة إخضاع التحليل السيميائي للنصوص لقراءة موحدة مسؤولة عن تحديد البنيات البسيطة للمعنى[4].

ولهذا جاء مسعانا عبر هذه المقاربة، محاولة لاصطناع القراءة المركبة باعتماد التركيب المنهجي، في محاولة المزاوجة بين " البنيوية" و"الاجتماعية" في تركيبة منهجية واحدة، نظراً لأنَّ البنيوية وحدها لاتغدو نزعة بالنسبة لحقل السيميائيات التي امتزجت بعلم الدلالة،بعد أن

تبين قصـــور الســـيميولوجيا عن إدراك الدلالة ما دامت تضـــع اهتمامها للعلاقة بين الدال والمدلول[5].

وقد اعتمدنا في مقاربتنا لرواية " فوضـى الحواس" الإجراء السـيميولوجي، وذلك بتوخي السعة والشمولية الكافيتين لمنح هذه المقاربة الكثافة الدلالية اللازمة، ولهذا لم نلتزم بما يصر عليه غريماس وأتباعه على ترســيخه، وهو العمل بالقراءة الأحادية التي تنتهي إلى عزل النص ومن ثم غلقه وموته.

ونظراً لما تحفل به التجربة الكتابية عند مســتغانمي من صــور لونية غنية وهي إحدى الملامح الكبرى التي تميز أســلوبها، فإننا ســنحاول من خلال الدلالة الســيمولوجية للايقونتين اللونيتين (الأبيض والأسـود) عبر واحدة من أشـهر رواياتها "فوضـى الحواس" الوصـول إلى فهم جدلية الصـراع المشـهدي / اللوني لديها، لكي تتكشـف أمامنا ما تدل عليها إيحاءاتها ومؤولاتها وما تستحضره من أبعاد فلسفية ظاهراتية في ذات المبدعة تتجاوز الواقع إلى المطلق.

ولهذا يلح علينا هذا التساؤل:

ـ كيف يستطيع اللون أن يصبح عنصراً ضمن نسق رمزي يتكثف وسط فوضى الحواس؟

أولا: سيمياء العنوان:

إنَّ العناوين عبارة عن علامات سيميوطيقية تقوم بوظيفة الاحتواء لمدلول النص، كما أنها ـــــ في الوقت نفسه ـــــ تؤدي وظيفة تناصية، لذا فإنَّ الظفر بمغزى العنوان هو أول الحيل التكتيكية لفهم النص، فهو الذي يزود القارئ بزاد ثمين لتفكيك النص وكشــف خباياه، كما أنه يقدم معونة كبرى لضــبط انســجام النص وفهم ما غمض منه، إذ هو المحور الذي يتوالد و يتنامى، ويعيد إنتاج نفسه، وهو الذي يحدد هوية الخطاب، فهو بمثابة الرأس للجسد، والأساس الذي يقام عليه العمران إن صحت المشابهة[6].

فالعنوان ضــرورة لكل نص، لأنه البوابة المفتوحة لفهم ما يخبئه، وانطلاقاً من هذه الأهمية يعرفه محمد فكري الجزار فيقول :((العنوان ليس مجرد حلية لفظية تزين النص، إنما هو أول جملة نقرأ فيه، فتركيبه يكشـف لنا عن سـر النص أو يمهد لنا الطريق لاكتشـافه، إذ أنَّ البنية اللغوية تحيل بالضـرورة إلى شـيء ما،إنَّ العنوان باعتباره قصـداً للمرسـل يؤسـس أولاً لعلاقة العنوان بخارجه سـواء كان هذا الخارج واقعاً اجتماعياً عاماً، أو سـيكولوجياً، وثانياً لعلاقة العنوان ليس بالعمل فحسب بل بمقاصد المرسل في عمله أيضا، فالعنوان يدل بمظهره اللغوي من الصـوت إلى الدلالة على وضـعية لغوية شـديدة الافتقار، إذ لا يتجاوز حدود الجملة إلا نادراً، وغالباً ينجح في إقامة اتصال نوعي بين المرسل والمستقبل))[7].

ويلح عبد العزيز مرتاض على ضرورة أن يكون العنوان صورة عاكسة لما يحويه النص حاملاً في طياته الفكرة الجوهرية التي تبنى عليها، فأي عنوان لأي كتاب يكون عبارة صــغيرة تعكس عادة كل عالم النص المعقد الشاسع الأطراف[8].

وعنوان الرواية التي بين أيدينا صيغ من كلمتين " فوضى الحواس" وبهذا فإنَّ العنوان كوحدة دلالية في هذه الرواية يوحي بدلالات تتمركز حول عنوان الرواية، فالحواس في حالة فوضى وعدم استقرار وعدم انتظام، فهي في حركة دائمة.

وعند التمعن فيه أكثر، نفهم مباشرة المعنى العام الذي تتضمنه الرواية، والذي يمكن استقراؤه أيضاً من الدلالات المختلفة كالناحية التركيبية والناحية الصرفية للكلمتين،فقد استعملت الروائية لفظة "الحواس" بصيغة الجمع للتعميم، ولم تطلق هذه الفوضى على حاسة واحدة، بل شملت الفوضى الحواس جميعاً بعيدا عن التعيين، فكل الحواس غير مستقرة وتعاني من انعدام الاتزان أو إنها في حالة عتمة دائمة.

وربما أرادت الروائية شيئاً آخر تحاول إخفاؤه داخل تركيبة هذا العنوان، فإذا ما تعمقنا أكثر في دلالته السيميائية بعد قراءتنا للرواية أو قبل قراءتها، نستطيع أن نقول إنَّ العنوان كان يركز على مسألة العتمة والفوضى فكان العنوان بؤرة النص ككل بحيث تتجلى من خلاله كل الوحدات المركزية التي عملت على بناء النص الروائي.

ويبقى المتلقي مأخوذاً تأسره الدهشة أمام هذا العنوان، في محاولة الكشف عن سر الغموض في الرواية((وعملية الإدهاش لا تعتمد على العتمة، لأنَّ عتمتها مضيئة، ولأنها تعتمد على تفعيل الإضاءة والإشعاع ليتسرب متقطعاً ...لأنه تتحول فيه اللغة عن بعدها الأول (المكتوب) إلى بعدها المتحرك))[9] .

فالعنوان يحمل وحدات أساسية تتركز جلها حول حالة الفوضى والعتمة، وهي تندرج ضمن تلك الفوضى بالترتيب: ألغام الحواس، عتمة الحواس، ألغام الصمت، فوضى الحواس، فوضى المشاعر.

لقد أضحى لهذا العنوان بعداً أعمق ولاسيما إذا ما حاولنا أن نتلمس أثره من خلال النصوص التي بدت فيها الروائية في حالة فوضى، وهي تتحدث عن ثنائيات متضادة وتعرضها بأسلوب يوحي بالتساؤل فتقول: ((كيف لنا ان نعرف وسط تلك الثنائيات المضادة في الحياة، التي تتجاذبنا بين الولادة والموت، والفرح والحزن، والانتصارات والهزائم، والآمال و الخيبات، والحب والكراهية، والوفاء والخيانات))[10].

وقولها في موضع آخر :((ترى تواطأت معه اللغة ؟ أم العتمة ؟ أم هذا المكان الملتبس بين الوهم والحقيقة، بين الليل والنهار، بين الحلم والواقع، بين الأدب والحياة))[11].

وكل ذلك لم يكن خارجاً عن دلالة العنوان وما يحمله من أثر في ذات الروائية. ولذا يبقى العنوان قراءة مفتوحة.

ثانياً: تأثير الألوان على الإنسان:

اللون هو إحساس يؤثر في العين عن طريق الضوء، وهو ليس إحساساً مادياً ملوناً، ولا حتى نتيجة لتحليل طيف الألوان،بل هو إحساس مرسل إلى العقل عن طريق رؤية شيء ملون ومضيء.

فاللون من مكونات الإطار الطبيعي لحياتنا، لذا لفت تأثيره انتباه العلماء الباحثين في شؤون الطبيعة المحيطة، وما تعكسه على حياتنا من أثر وتأثير جسمي ونفسي. ولذلك فقد تنبه الإنسان إلى الألوان الموجودة في بيئته المحيطة وعقد معها علاقات متنوعة، ووضع لها ألفاظا تدل عليها وتميزها عن غيرها، وتطوّر معجمه اللوني ونما نتيجة لتطور إدراكه من ناحية ولاختلاف مجتمعه الذي يعيش فيه من ناحية أخرى.

لقد اكتسبت الألوان وألفاظها إلى جانب دلالاتها الحقيقية دلالات اجتماعية ونفسية نتيجة لما يملكه اللون ذاته من قدرات تأثيرية، وما يحمله من إيحاءات معينة تؤثر على انفعالات الإنسان وعواطفه[12].

كما أنَّ للألوان القدرة على إحداث تأثيرات نفسية على الإنسان، فإنَّ لديها القدرة على الكشف عن شخصيته، لما لكل منها من ارتباط بمفهومات معينة، ولما يمتلكه اللون من دلالات وإيحاءات خاصة تعارف عليها المجتمع أو عقدها الإنسان بينه وبين تلك الألوان.

ولأهمية اللون في النشاط الحيوي الإنساني عرفت دراسة سيميائية الألوان في العصر الحديث قفزة كبيرة، ورواجاً واسعاً في الدراسات الغربية، وتتبع السيميائيون طبيعة هذه الألوان، واكتشفوا في تحليلاتهم أبعاداً نفسية أكثر عمقاً، دونوا عليها ملاحظاتهم .

وتوصل السيميائيون إلى أنَّ ((دلالة اللون لا تقف عند حدود الاستعمال السنني، بل إنها كثيراً ما تتحول إلى نشاط ادراكي ومعرفي، ورمزي، تتجلى من خلال التلفظات الايقونية للون))[13]، ومن ثم فإنَّ ((علاقات اللون قد تكون شكلية عبر الانطباعات الإدراكية التي تتركها، ودلالية عبر إحالتها الواقعية، وسردية أو بلاغية تضمينية أو تداولية بوصفها خطاباً وسمة))[14]. وفي كل الأحوال فإنَّ الأيقونة اللونية هي علامات دالة وإنْ بدت غامضة مجردة أو غير واضحة.

ويكتسب اللون كأيقونة رمزية دلالته الجمالية وفاعليته الوظيفية من خلال السياق الذي يحدد دلالة اللون بتفاعله مع دلالات الكلمات المجاورة له في سياق النص،فالأيقونة اللونية تعاني دائماً من عدم الاستقرار على دلالة واحدة، فيصبح الفضاء اللوني هنا علامة لغوية ترتبط بمؤولات متنوعة توحي بأبعاد رمزية كثيفة بحسب ما يقصد إليه صاحب النص الإبداعي، فيتعدى بذلك كونه مجرد فضاء لوني إلى موضوع دلالي مشبع بأبعاد رمزية لها خلفية فلسفية عميقة[15].

ومتلقي الألوان لابدَّ أن يستعين بطاقات اللغة وأبنيتها المتعددة وسياقات النص ومناسباته لاقتناص مدلولات دوال الألوان، فاللون متغير حسب المنحى النفسي والمجال التركيبي .

ومن منظور سيميولوجي يتخذ للون حضوراً روائياً غنياً بالدلالات بوصفه علامة لها حياتها النشطة داخل المجتمعات اللغوية.

ولو حاولنا تجلية هذه الحقيقة اللونية في رواية"فوضى الحواس" لوجدنا أنَّ للون وظيفة وجدانية أو اجتماعية أو ميثولوجية اكتسبها هذا العمل الإبداعي، فاستعملت الروائية اللونين "الأبيض، الأسود" ووظفتهما بطريقة تعكس مافي داخل الكاتبة من فيض إبداعي، فارتبط ذلك لديها بمجالات إنسانية، وقدمت صوراً لونية غنية حتى أصبح لهذين اللونين قيمة دلالية جديدة في تجربتها الروائية.

سنحاول من خلال الدلالة السيميولوجية لإيقونتي "الأبيض، الأسود" الوصول لفهم جدلية الصراع المشهدي لديها، وكذلك نزوعها الأبدي للعوالم المطلقة من خلال اتخاذ الرمز اللوني قناة للعبور والسمو والتنصل من واقعية الواقع وظلاميته.

ثالثاً: الدلالة السيميولوجية للأبيض والأسود :

الأبيض والأسود لونان متضادان، ارتبطا معاً فوظف اللون الأسود في المناسبات الحزينة، والمواقف غير المحبوبة، فيما استأثر اللون الأبيض بالمناسبات المفرحة والمواقف المحبوبة لدى الإنسان. ونحن نقر ذلك مع الأخذ بنظر الاعتبار عدم استقرار الدلالة اللونية،وإنها في حالة تغير مستمر

أما سبب اختيار الروائية لهاذين اللونين دون ما سواهما فيمكن أن نعزوه إلى كونهما يمثلان أصل الحقائق اللونية، فالألوان كلها هي من السواد والبياض بدليل قول الجاحظ: ((وزعموا أنَّ اللون في الحقيقة إنما هو البياض والسواد، وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد على البياض، إذ كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد وبعدت من البياض، فلا تزال كذلك حتى تصير سواداً))[16].

كما أنَّ للبياض والسواد وما يدخل ضمن دلالتهما اللونية (النور، الظلمة)،(الوضوح، الغموض)،(الأمل، اليأس) ..هي ألوان تحمل دلالات توحي بالغموض والفوضى وعلى اختلاط الأمور وعدم الاستقرار، وهذا بالتالي يدل على الغموض الذي ينتظر مستقبل تلك العلاقة التي بدأت في العتمة والظلام، وبعد أن فوجئت البطلة بنهاية غير متوقعة أو أنَّ المفاجآت غير المعلنة كانت دوماً هدية يسوقها إليها القدر.

وباستعمال آلية المنهج الإحصائي، يشير معدل تردد اللونين إلى هيمنة اللون (الأسود) الذي يتقارب بمعدل 94 مفردة لونية، فيما يأتي اللون (الأبيض) بالمرتبة الثانية إذ إنه يتكرر بنسبة 42 مفردة لونية، الأمر الذي يدل على أنَّ الرمز اللوني من أهم المقومات التي تستعملها الروائية في تشكيل المشاهد في العمل الإبداعي، إضافة إلى ما تدل عليه إيحاءاتها ومؤولاتها وما تستحضره من أبعاد سيميولوجية في ذات الروائية تتجاوز الواقع إلى المطلق.

فالأيقونة اللونية السوداء هي: (الليل،عتمة الحبر،عتمة الليل،الأسود،الدفتر الأسود،حبهما للون الأسود،الحبر،نظارته السوداء،المساء،قميص اسود،العتمة الأولى،مرتدياً سواده،خط كبير اسود،زي اسود،اللون الأسود، عمى الألوان، الفستان الأسود، عتمة الأمسيات، تخفي،مزاج حبري، غلاف اسود، عمقاً، أطفأ، رجل من حبر، الظل، عتمة الحواس،ارتداء الأسود،رجل يلبس الأسود،ثوب اسود،الدخان،أغلق،ملاءة سوداء،لثام اسود،مغلقة).

أما الأيقونة اللونية البيضاء فهي:(حالة ضوئية،الورق الأبيض،ولاعة تشتعل،يضيء المكان،النهار،ضوءه،امرأة من ورق،قميص ابيض،أمام ورقة،أوراق،انارات صغيرة،بنطلون ابيض،الأبيض،التقوى بياضاً،ثوبها وشالها الأبيض،أنثى الورق الأبيض،جبته البيضاء،ابيض شاسع،البيوت البيضاء،هامش صغير للبياض،الأضواء،البياض حد أقصى).

وبعد هذا التحديد للقرائن كعلامات مرتبطة بموضوعها سنحاول أن نحدد مجالها الدلالي السيميولوجي، وإيحاءاتها الرمزية بالإحالة على الوقائع التي تتداولها الثقافة السائدة.

فاللون الأسود الذي يتردد بنسب كبيرة في هذه الرواية هو لون جاء ليؤكد خطاب الرغبة/العشق عبر كتابات مستغانمي الروائية، وذلك لما لهذا اللون من دلالة على طغيان القيم الأصلية،فالأسود هو الأصل لكل لون، بدليل أنَّ اللّه اخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكانت الظلمة اسبق انطولوجياً من النور.

ويؤكد الناقد عبد المجيد جحفة أن للأسود دلالة رمزية أنثوية، ولأجل ذلك جاءت أمكنة الشيطان أمكنة ليلية معتمة،لأنه لايمارس سلطته في واضحة النهار بل يترقب الغفلة،وغياب التركيز النهاري[17]، وأخذ يعطي لهذا اللون دلالة مرتبطة بأبعاد أعمق حين ذهب إلى ارتباط هذا اللون بالبدايات الأولى لأصل الخليقة((فالخلق في البدء كان أنثوياً، وبعده جاء الخلق الذكوري الذي دحر نموذج الخلق الأول وسطر له دوراً ثانوياً))[18].

لقد كان اللون الأسود/الظلمة أفضل قناع تنكري تستتر به الروائية من عين الرقابة والعقل،لأنَّ البياض/النور هو سلطان العقل الذي يهاجم السواد، وهذا ما يفسر لنا سبب كون تجربة العشق ـ على مر التأريخ ـ تجربة سرية محجوبة.

فاللون الأسود كان في تجربة مستغانمي منزلة أولى بخلاف اللون الأبيض الذي كان مختبئاً خلف لونيته.

فالأبيض وكما هو معروف لون مرتبط بالفرح والسعادة، وهو لون قريب إلى البراءة، فضلاً عن كونه علامة عنصرية مستبدة، حين استأثر بقيم الطهر والصفاء والنقاء متلبساً بذلك هوية مزيفة كاشفة عن دنسه وزيفه واستبداده اللوني[19].

لقد استحضرت الروائية في تجربتها الدلالات اللونية المتناقضة لهذين اللونين، فتعددت الصور والقراءة السيميولوجية لهما، فتارة يظهران بمظهر التضاد اللوني، وتارة في صورة لونين يكمل أحدهما الآخر.

كما أنها تعطي للون دلالة مناقضة لما هو شائع في الثقافات اللونية، فالأبيض الذي هو رمز للصفاء والفرح،يظهر رمزاً للحزن والألم والفقدان والنهايات الغير متوقعة، والأسود الذي هو رمز للحزن والتشاؤم والوحشة، يظهر في الرواية رمزاً للسكينة والراحة، وهكذا أعطت كثافة دلالية للونين.

فاللون الأسود بطغيانه اللوني يعد حد أقصى لتجربة الوقوف على تخوم الذات، فالكتابة تعطي للألوان حيوية أو فوضوية متحركة.

البطلان في الرواية عبارة عن لونين (الأسود، الأبيض) واجتماعهما كان مما دعت إليه المناسبة القدرية، فالأسود رمزا لونياً للرجل، والأبيض رمزاً لونيا للمرأة،وكان اللقاء بينهما بمثابة ((رقعة الشطرنج، اختار فيها كل واحد، لونه ومكانه))[20] ، وهذا ما يمكن أن نستنتجه من عدت نصوص وعلى نحو من التصريح تارة، أو التلويح تارة أخرى، كما في قولها :((رجل من حبر، وامرأة من ورق))[21]، وقولها: ((كنت أنثى القلق، أنثى الورق الأبيض))[22]، وقولها:((أنْ تجلس لتكتب في مكان علني، كأنك تمارس الحب على وقع أزيز سرير معدني، وبإمكان الجميع أن يتابعوا عن بعد، كل أوضاعك النفسية وتقلباتك المزاجية، أمام ورقة))[23]، وقولها:((منذ اللحظة الأولى شعرت بيني وبين هذا الدفتر، ذبذبات ما، تعدني بكتابة نص جميل، على هذا الورق الأبيض الأملس، الذي تضمه مفاصل حديدية، ويغطيه غلاف اسود لامع))[24].

لقد أعطت الروائية للقارئ كل الإشارات الدالة التي توحي له بأنَّ اللون الأسود ماهو إلا صورة رمزية للرغبة المتخيل المتجسدة في رجل اسمه (هو) وما يثيره في ذات البطلة من إشعارات أضرمها السواد، فعندما كانت تصفه منذ الصفحات الأولى، كانت تلقي عليه ظلال السواد فـ((هو رجل الوقت ليلاً))[25] و((هو سيد الوقت ليلا، سيد المستحيلات، والحزن العابر للأمسيات، والانبهار الدائم بأول ليل))[26].

ومن ثم ارتبط هذا اللون بالرغبة، وكان الأسود يعطي موعدا دائماً باللقاء، فكل لقاء بينهما كان السواد فيه سيد الموقف، حتى أن العتمة التي جمعتهما في أول لقاء قدر لها إن تكون عتمة مضيئة وإن كانت بعيدة عن ضجيج وصخب الأضواء،فكانت هذه العتمة بداية لما سيلغيه البياض فور قدومه.

فالسواد في "فوضى الحواس" لم يكن حداداً، بل إنَّ هذا اللون فارق دلالته الاجتماعية هنا ليكتسب دلالة جديدة، ألا وهي إرادة الحياة، فاللقاء تم في العتمة، بملابس سوداء، وقميص اسود، ونظارات سوداء، ودوّن كل ذلك بحبر في دفتر بغلاف أسود.

لقد حاولت الروائية أن تخلق قيماً خلافية، فأعادت للرمز اللوني مؤولاته وخلعت عليه دلالات جديدة شرعنت للسواد المنزلة الأولى، فلم يكن يحمل أية دلالة على الزهد أو الحزن، وهذا ماينبئ عنه قولها: ((لكنني اعرف لك طريقة في ارتداء الأسود .. لكأنه معك لون خلق

للفتنة لا للزهد))[27]، وقولها : ((قبلك لم ارَ رجلاً يلبس الأسـود في هذه المدينة، حتى لو كان ذلك حداداً))[28]، وقولها :((وهو لماذا اختار الأسود؟

أ ليعطيني إشعاراً واضحاً بكونه (هو)؟

أم ليأتي مطابقاً للون جئته فيه مصـادفة، واختارته لي الحياة بنية التضـليل، كي أعطيه إشعاراً كاذباً بأنني أنا))[29].

لقد كان السـواد هنا علامة سـيميولوجية حاولت الكاتبة أن تضـيف إليها دلالات متعددة لتصـل إلى أنه لون الرغبة ولون الحواس، فهذا اللون لم يكن سـوى رغبة داخلية، أنه أعمق الألوان صدقاً، ربما كانت الروائية قد بنت روايتها عليه في قولها: ((فلحقت في لحظة من فوضى الحواس، بذلك اللون الأسود))[30]، لتخرجه من محتواه اللوني الواقعي إلى إحساس أكثر منه لوناً لتفاجأ بما لم تكن تتوقعه.

فالسـواد في هذه الرواية لم يكن لون حداد أو عزاء، بل كان لوناً يمتلئ بالحياة، وحتى في لحظة موت عبد الحق فالأسـود لايتحول إلى لون عزاء، فالبطلة لم ترتدي الأسـود حداداً، بل جعلته بمثابة استدراجاً للقدر عله يرتب لها موعداً مع ذلك الذي حسبته "هو" مادام الأسود كان لون لقاؤهما الأول، بل انه كان شـاهداً على كل لقاء بينهما، وهذا ما أفصـحت عنه بقولها: ((وضـعت عطر ذلك الرجل نفسـه، الذي بدأت به هذه القصـة، وارتديت ذلك الفسـتان الأسـود نفسه ... قطعاً لم أكن ارتدي الأسود حداداً))[31].

وهكذا تنصل السواد من دلالات الفجيعة إلى دلالات أخرى مغايرة له تماماً.

أما الأبيض فقد كان في الرواية يمثل زيف لوني وأكذوبة، وأخذ هو الآخر بعداً لونياً مغايراً لما هو مألوف، فكان البياض يتوعد بالنهايات غير المتوقعة، وكل مساحة بيضاء ـ في الحقيقة أو حتى على الورق ــ لم تكن تنبئ بخير، وضعت أمام القارئ علامات الارتياب، وقد ألمحت الروائية إلى ذلك منذ البدايات الأولى حين وصفت الرجل الذي يرتدي البياض ـــ الذي تبين فيما بعد انه عبد الحق ـ فقالت: ((بدت من الرجل صاحب القميص الأبيض إشارة من رأسه كأنه يودعني بها، رافقتهما نظرة غائبة تعد بشيء ما))[32]، فكان هاجس الوداع يرافق اللون الأبيض.

ثم أنها في مشـهد من مشـاهد الحوار في الرواية، حين ينتقل الحديث عن اللون الأبيض تصفه بأنه((خدعة الألوان))[33]، وفي ذلك إشارة إلى شيء ما.

لقد كان للبياض هنا دلالة لونية تساوي الفراغ، فكل مساحة بيضاء هي مساحة يمكن اختراقها((كل صفحة بيضاء في كتاب، هي مساحة مسروقة من الحياة))[34].

إنَّ ما توعد به البياض من الفجائع كان قد وقع فعلاً، فالرجل الذي لبس البياض باستفزازية الفرح ـــ عبد الحق ـــ يموت في نهاية المطاف، فانتهت الرواية باحتمال البياض،فيجتمعان معاً،هي بثوبها الأسود مستدرجة القدر إلى لقاء جديد علّه يكون، وعبد الحق بالديكور الرخامي الشاسع البياض.

وهنا تظهر لعبة الألوانأو قل عنها خدعة الألوان،كيف تنصل كل لون من دلالته متلبساً دلالة جديدة لم تكن له، لقد أحست الروائية بالفاجعة اللونية، بالسواد الذي يعيد للأصل،والبياض الذي يُظهر تدليسه وزيفه اللوني، فتتقابل الأطراف وتتعارض المقامات مؤسسة لرؤيا استشراقية جدلية، وتقف الروائية داخل حلبة الصراع اللوني.

فكان عالم البياض / الضوء هو في جوهره نهاية المطاف أو نهاية السلسلة الظلامية/السوداء التي بدأت بها الرواية.

ومن هنا تميز اللون في هذه الرواية بالطابع الصوفي الذي يعد الليل/السواد الحالة الأصلية للأشياء، فهو ميقات التجلي الإلهي ولذلك فقد مثل هذا اللون/الزمن الذي يحلو للروائية الانغماس فيه، فالنهار/البياض كان لوناً فاضحاً أو قل عنه فائض لوني.

لقد راعت الروائية مسألة الوجود اللوني، وشكّل الاختزال اللوني جدلية تؤكد الصراع الوجودي من خلال أيقونتي (اسود/ابيض) فالتعارض اللوني لم يكن تعارضاً كيفياً، و إنما هو تعارض المتناقضات الكمية.

فأصبح السواد بياضاً والبياض سواداً، والوجود تائهاً بلا قيود أو ضوابط، مثل حالة من الحركة وعدم الاستقرار وهو ما أرادت الروائية التأكيد عليه من خلال العنوان الذي خلعت عليه صفة الفوضى فكان "فوضى الحواس" فوضى للإيحاءات اللونية المتضادة.

وأخيراً فنحن نقف مبهورين أمام هذا التوظيف الروائي للونين المتضادين، فهي تقع في فوضى دلالية لونية في محاولة اكتشاف ذاتها، واكتشاف عالم آخر داخل عالم فوضى الإيحاءات اللونية.

الخاتمة والنتائج

لقد أسفر البحث عن عدة نتائج يمكن إجمالها فيما يأتي:

ـــــــ يتخذ للون حضـوراً روائياً غنياً بالدلالات بوصـفه علامة لها حياتها النشـطة داخل المجتمعات اللغوية، وقد تبينت هذه الحقيقة اللونية في رواية"فوضى الحواس" فوجدنا أنَّ للون وظيفة وجدانية أو اجتماعية أو ميثولوجية اكتسـبها هذا العمل الإبداعي، فاسـتعملت الروائية اللونين "الأبيض، الأسـود" ووظفتهما بطريقة تعكس ما في داخل الكاتبة من فيض إبداعي، فارتبط ذلك لديها بمجالات إنسانية، وقدمت صوراً لونية غنية حتى أصبح لهذين اللونين قيمة دلالية جديدة في تجربتها الروائية.

ـــــــ اللون الأسـود الذي يتردد بنسـب كبيرة في هذه الرواية هو لون جاء ليؤكد خطاب الرغبة/العشق عبر كتابات مستغانمي الروائية، وذلك لما لهذا اللون من دلالة على طغيان القيم الأصلية،فالأسود هو الأصل لكل لون، بدليل أنَّ الله اخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكانت الظلمة اسبق انطولوجياً من النور.

ـــ لقد استحضرت الروائية في تجربتها الدلالات اللونية المتناقضة لهذين اللونين، فتعددت الصور والقراءة السيميولوجية لهما، فتارة يظهران بمظهر التضاد اللوني، وتارة في صورة لونين يكمل احدهما الآخر.

ـــ لقد أعطت الروائية للون دلالة مناقضة لما هو شائع في الثقافات اللونية، فالأبيض الذي هو رمز للصفاء والفرح،يظهر رمزاً للحزن والألم والفقدان والنهايات الغير متوقعة، والأسود الذي هو رمز للحزن والتشاؤم والوحشة، يظهر هنا رمزاً للسكينة والراحة، وهكذا أعطت كثافة دلالية للونين.

ـــــــ لقد حاولت الروائية أن تخلق قيماً خلافية، فأعادت للرمز اللوني مؤولاته وخلعت عليه دلالات جديدة شرعنت للسواد المنزلة الأولى، فلم يكن يحمل أية دلالة على الزهد أو الحزن.

ـــ لقد كان للبياض هنا دلالة لونية تساوي الفراغ، فكل مساحة بيضاء هي مساحة يمكن اختراقها.

ـــــــ تميز اللون في هذه الرواية بالطابع الصوفي الذي يعد الليل/السواد الحالة الأصلية للأشـياء، فهو ميقات التجلي الإلهي ولذلك فقد مثل هذا اللون/الزمن الذي يحلو للروائية الانغماس فيه، فالنهار/البياض كان لوناً فاضحاً أو قل عنه فائض لوني.

ـــ لقد راعت الروائية مسألة الوجود اللوني، وشكّـل الاختزال اللوني جدلية تؤكد الصراع الوجودي من خلال أيقونتي (اسـود/ابيض) فالتعارض اللوني لم يكن تعارضـاً كيفياً، و إنما هو تعارض المتناقضات الكمية. فأصبح السواد بياضاً والبياض سواداً، والوجود تائهاً بلا قيود أو ضـوابط، مثل حالة من الحركة وعدم الاسـتقرار وهو ما أرادت الروائية التأكيد عليه من خلال العنوان الذي خلعت عليه صـفة الفوضـى فكان "فوضـى الحواس" فوضـى للإيحاءات اللونية المتضادة.

الهوامش:

[1] – ينظر : السيمياء العامة أسسها ومفاهيمها، عبد القادر فهيم الشيباني، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف . الجزائر، ط1، 1431هـ . 2010م : 150.

[2] – ينظر : المصدر نفسه : 149 . 150

[3] – بعيدا عن الحواس الأولى، غالية خواجة www.azzamam.com\azz\articles\05\05\26-2002

[4] – A.J Greimas et courtes:Dictionnare de semiotique Lecture:207

[5] – ينظر: سيمياء النص الأدبي :أنور المترجي، سلسلة البحث السيميائي، إفريقيا الشرق،1987م : 36

[6] – ينظر : دينامية النص : محمد مفتاح، الدار البيضاء . المغرب، المركز الثقافي العربي : 72.

[7] – العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي : محمد فكري الجزار، الهيئة المصرية العامة للكتاب،1998 : 21

[8] – تحليل الخطاب السردي، معالجة تفكيكية سيميائية لرواية زقاق المدق: عبد الملك مرتاض، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر : 277

[9] – بعيدا عن الحواس الأولى، غالية خواجة.www.azzamam.com\azz\articles\05\05\26-2002

[10] – فوضى الحواس:أحلام مستغانمي، دار الآداب . بيروت،ط2008،17 : 19.

[11] – المصدر نفسه : 55

[12] – ينظر: اللغة واللون: أحمد مختار عمر، عالم الكتب للنشر والتوزيع ـ القاهرة، ط2، 1997م :199

[13] – السيمياء العامة . مفاهيمها وتطبيقاتها : 43.

[14] – المصدر نفسه : 43.

[15] – ينظر: الشكل والخطاب (مدخل تحليلي ظاهراتي)، المركز الثقافي العربي،ط1، 1991م :53- 54

[16] – كتاب الحيوان : ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات المجمع العلمي العربي، ط59،3/5.

[17] – ينظر:سطوة النهار وسحر الليل(الفحولة وما يوازيها في التصور العربي):عبد المجيد جحفة،دار توبقال للنشر،ط1، 1999م : 84.

[18] – المصدر نفسه: 85.

[19] – ينظر: أقنعة البياض: إبراهيم محمد، مجلة كتابات معاصرة، ع33، 1988م : 37، 41

[20] – فوضى الحواس :21.

[21] – المصدر نفسه:61.

[22] – المصدر نفسه:124

[23] – المصدر نفسه:65

[24] – المصدر نفسه:25

[25] – المصدر نفسه:10

[26] – المصدر نفسه:11

[27] – المصدر نفسه:76

[28] – المصدر نفسه:76

[29] – المصدر نفسه : 98.

[30] – المصدر نفسه : 347.

[31] – فوضى الحواس : 357

[32] – المصدر نفسه : 71

[33] – المصدر نفسه : 77

[34] – المصدر نفسه : 17.